مَا وَراءَ الذاتويّة!

مَا وراءَ الذاتويّة!

رغد أيمن

الإهداء

كُلّي رجاءٌ، أن نُغيّر نظرتنا للحياة بعد قِراءة تلك الرواية..
وأنا أوّلكم!

نحمدُ الله على حالنا!
نشكره على كرمه لنا في مواضِع شَتّى!

وأرجوك.. لا تجعل غضبكَ من أولادك، أن تتمنى سكونهم،
أو عدم إنجابهم من الأصل!

والسَّلام!

اعتذارٌ واجِب!

قد تؤلِمُ الأحداثُ قلوب، أو عيون البَعض!
وتالله ما هذا بغرضي!
ولكن بعضٌ من الواقعيّة، أحياناً.. تُوجِع!

"1- تساؤلات!"

حيثُ كانت الشمسُ على أوجّها بالخارج، ولهيبُ الصيفِ يلفحُ وجوه الناس..
كانت تلك المرأة واقفةً بالمطبخ، تُعدُّ وجبة الغداء لزوجها الذي قارَب على عودته من عمله!

سمعت جرس المنزل يرن، تزامناً مع سماعها لصوتٍ خافت، صدر من طفلها الذي يبلغُ ثلاثة أعوام..
ركضت تجاه غرفتها، تُمسكُ بيده.. ثم أسرعت خُطاها نحو باب المنزل وهي تُهدؤه!

- معلش يا **"فاطمة"** الواد كان صحي لما رنيتِ الجرس!
قالتها صاحبةُ المنزل باعتذار لزوجة شقيق زوجها.. فهزّت الأخرى رأسها بلُطف بمعنى "لا بأس".. ثم أجابتها وهي تمدُّ يدها له:
- أنا عارفة أنه أستاذ **"جمال"** قرّب ييجي، لو كدة هاتي **"زياد"** وروحي كملي الأكل!
فابتسمت لها الأخرى، وهي تُعطي لها الصَّبي الصغير.. ثم أسرعت خُطاها للمطبخ!

أما **"فاطمة"**، فنظرت للصغير بابتسامة واسعة، ثم أخذت تُلاغيه وتُلاعبه.. تُحاول إضحاكه أو حتى إغضابه!
إلا أن كُلُّ ذلك ذهب أدراج الرّياح، وبقي الصغير ساكناً، ينظر للاشيء.. ورُبّما يتململُ بخفوتٍ بين حينٍ وآخر!

انقبض قلبها بضيق، فليست تلك أول مرة يتجاهلها الصغيرُ فيها!

- **"زياد"**! يا كوكو.. هنا، هنا!

وأيضاً لم يُعرها الصغيرُ أي انتباه!
فتنهّدت، وأحكمت الإمساك به.. ثم قامت من مجلسها مُتخذةً خُطاها تجاه المطبخ، وهي عازمةٌ على الحديثِ مع والدته!

- ايه يا **"زوزو"**، أخبارك كدة؟

قالتها بمرح طفيف، فأجابت **"زينب"** وهي تُحاول مسح العَرق الذي يتساقطُ من جبينها:

- أهو الحمد لله، يا دوب خلّصت!

- طب روحي خُدي شاور، وتعالي عشان عايزة أقولك حاجة مهمة!

قالتها **"فاطمة"** بجدّية حاولت تهدئتها قليلاً، إلا أن الأخرى استشعرت من نبرتها خطورة الموضوع.. فخرجت سريعاً من المطبخ باتجاه الحمام.. بعدما أطفأت الموقِد!

*****

- **"زينب"** أنتِ بتتكلمي مع **"زياد"**؟ يعني بتقعدي تلاغيه وتلاعبيه كدة، ولا بتسيبيه زي ما هو؟

قالتها **"فاطمة"** بهدوء، ما إن جلست الأخرى أمامها بعدما أجلست الصغير على قدمها، يُشاهدُ التّلفاز!

عقدت **"زينب"** حاجبيها لغرابة السؤال، وفضوليته الواضحة.. إلا أنها صبغت نبرتها بالمُزاح وهي تقول:

- والله يا **"بطة"** ساعات.. على حسب ما وقتي بيسمح يعني! وبعدين هو ما شاء الله عليه، مَطرح ما بتسيبيه بتلاقيه.. وهادي خالـ..

قاطعتها **"فاطمة"** بحنقٍ حاولت كَبته، إلا أنها لم تستطع:

- وده بالنسبة ليكِ عادي؟ يعني عادي طفل في السن ده يبقي ساكن وهادي، بدل ما ينكش ويِحبي ويخرّب ويصرّخ؟!

شعرت **"زينب"** بالغيظ الشديد من لهجة الأخرى..!
فقالت وهي تجذب من كف صغيرها خُصلةَ شعرها التي قَبضَ عليها:

- وأظن دي حاجة متضايقكيش! عادي، ابني هادي شويتين.. طالع لأمه!

- وبالنسبة لأنه مش بيستجيب للنَده، ده عادي برضو؟ بالنسبة لأنه مش بيعيط كتير زي الأطفال، أو مش بيضحك لما تلاغيه؟!

"زينب" بالله عليكِ صحصحي! حاولي توديه لدكتور أطفال لَيكون عنده حاجة!

قالتها **"فاطمة"** بحنقٍ وتحذير، فصاحت الأخرى بفزع وهي تُشيح بيدها في وجه الأخرى:

- يا شيخة فال الله ولا فالِك! المَلافِظ سَعد، مش كدة يا **"فاطمة"**! وبعدين تلاقيه بس عشان لسة صغير.. حبيب أمه!

تنهّدت الأخرى بإرهاقٍ، وهي تقوم من مكانها.. ثم سَلّمت على **"زينب"** بابتسامة هادئة، وهي تتحجج بأن لديها طِناً من الأشياء التي يجبُ عليها فعلها..

وختمت حديثها قبل أن ترحل، بتكرار نصيحتها بذهاب **"زينب"** بالصغير لطبيب أطفال، حتى تطمئن عليه!
على الأقل، الاحتياطُ واجب!

*****

بعد صلاة العشاء، حيث لا يُسمع في الجوار سِوى صوت صراصير الحَقل تُنشدُ لحناً ما.. رُبما يكون لحناً بائساً، أو عاطفياً!
أو صوتِ ذاك الطائر بين حينٍ وآخر.. ورُبما كان يقول "المُلك لَك لَك لَك لَك"..!

كانت الأسرة الصغيرة مُجتمعةً في غرفة الضيوف/ المعيشة..
حيث تقفُ **"زينب"** تَكوي ثياب العمل لزوجها.. وزوجها نفسه يجلسُ على الأريكة بالقُرب منها يُشاهد التلفاز.. ورُبّما بين حينٍ وآخر، ينظرُ لها مُبتسماً وهو يحكي لها شيئاً ما!

فكانت تستمعُ له بنصف انتباه، والنصفُ الآخر مُتركّزٌ مع صغيرها الذي يجلسُ على قدمِ والده، مُثبّتٌ عيناه على الأضواءِ الصادِرة من شاشة التلفاز!

- يا بنت الناس بكلمك، روحتِ فين؟!

صاح بها زوجها، فنظرت له باعتذار.. قبل أن تقول بتلعثمٍ، بعد ثوانٍ من التردد:

- **"جمال"**، هـ.. هو فعلاً الواد **"زياد"** مش بيضحك وهادي علطول؟! هي يعني دي حاجة وِحشة؟!

عقد حاجبيه بتعجّب! لَم يَدرِ ما علاقةُ ذلك، بحديثه عن تمنّيه لكعكةٍ بالشوكولاتة!

غير أنه أجابها بهدوء، وهو ينظرُ لابنه الشارد بتلقائية:

- معرفش! أنا برضو لاحظت أنه مش بيركز معايا أصلاً لما أحاول ألاغيه، بس قلت طالما أنتِ متكلمتيش يبقى ده عادي عشان سِنه!

ابتعلت ريقها، وقد بدأ القلق يتسلل لها، تزامناً مع ارتفاع نبضات قلبها وإيلام معدتها لها من الألم!

ثم أخذت تَحكي له ما حدث بينها وبين زوجة شقيقه، **"فاطمة"**!

وقد كان يستمعُ لها بإنصاتٍ وهدوء، وهو ينظرُ بين فينةٍ وأخرى لصغيره الذي انتظم تنفّسه دِلالةً على نومه الساكِن! ضمّ صغيره إليه بشدة، وتلقائية.. وقد تراود لذهنه شيءٌ ما، إن كان صحيحاً فـ..!

لا، لا.. الحمد لله الذي عافانا!

أفاق من أفكاره، على صوتِ زوجته التي همست له بخفوت وقلق.. ما إن رأت شروده وتغيّر ملامح وجهه للتجّهم:

- **"جمال"!** بتفكر في ايه، وإياك تخبّي عليا!

ابتلع ريقه وهو يتحاشى النظر لها، وقال بصوتٍ خرج منه مُتهدّجاً مُضطرباً رُغم مُقاومته:

- لأ لأ، مفيش! بفكّر أنه نروح بيه لدكتور عشان نطمّن مش أكتر.. وإن شاء الله يكون بس عشان سِنّه لسة صغير!

تنهّدت بعُمقٍ وهي تدعو الله بداخلها!

*****

"2- اكتِشاف!"

بعد ثلاثة أيام، حيثُ عطلة **"جمال"** من عمله.. كانا يجلسان في غرفة الانتظار بعيادةِ ذاك الطَّبيب الشّاب، مُنتظرين دورهم!

فجأة، صدح صوت **"زياد"** ببُكاءٍ حاد!
بُكاءٌ جعل جميع المتواجدين يتعجّبُ منه، فقد كان جالساً على قدم أبيه بهدوء.. ولم يتعرّض له شيء!
انقبض قلب **"زينب"** بقلق، وأخذت الصغير من زوجها حاملةً إياه، وهي تُحاول تهدئته.. وقد قام **"جمال"** من مكانه معها، ذاهبين باتجاه الباب.. وما زال الصغير يبكي ويصرخُ بصوتٍ يُمزّقُ نياط القلب!

تحدث **"جمال"** مع فتاة الاستقبال بسرعة وتوتر:
- معلش هنروح نجيبله أي حاجة من السوبر ماركت، ممكن بس قبل ما ييجي دورنا، حضرتك ترني علينا!

وختم حديثه، وهو يُمليها رقم هاتفه.. وأسرع خُطاه راكضاً خلف زوجته!

*****

يجلسان أمام مكتب الطبيب، ويجلسُ **"زياد"** الصغيرُ على قدم والده، مُمسكٌ بيده قطعة حلوى يأكلها بلا مُبالاة!

- اتفضلوا، قولولي المُشكلة!

قالها الطَّبيبُ بصوته الهادئ، وهو يُدوّنُ شيئاً ما بورقةٍ أمامه..

فأسرعت **"زينب"** تشرحُ له الوضع، وما قَصَّته عليها **"فاطمة"**.. وما تذكّرته هي من تعاملها مع ابنها..

فترك الطَّبيب قلمه، وقد لاحظَ الأب إسناده لذقنه على قبضة يده، وتغيّر ملامح وجهه للجدّية.. فانقبض قلبه بقلق!

وما إن أنهت الأم حديثها، حتى وقف الطَّبيبُ من موضعه مُستأذناً الأب بأخذ الصغير لدقائق!

ولكن الصَّبي شعرَ بالخوف؛ لكون الطَّبيب غريباً عنه.. فرفض بشدّة الذهاب له!

تنهّد الطَّبيبُ، واغتصب ابتسامةً.. ثم عاد لدرج مكتبه، وفتحه مُخرجاً منه بضعة بطاقاتٍ مُلونة، مرسومٌ عليها صور حيوانات (أسد، قطة، أرنب، بطة)..

ثم بدأ رحلته الشاقّة في جذب انتباه الصبي، أو النداء عليه..
مُحاولة جعله يُردد كلمةً خلفه، أو حتى قول أي شيء يعرفه..
ولم يخرج منه إلا بكلمة "ماما"، التي هجّاها له الطَّبيب!

وطِوال العَشر دقائق تلك، كان **"زياد"** هادئاً، سِوى من تململاتٍ بسيطة.. صامتاً لا يُعطي الطَّبيب أية استجابةٍ يُريدها!

وكُلُّ ذلك كان الأبوانِ يُتابعانه بضيق صَدر وحنق.. ليس من شيء، سِوى من ذاتهما!

الآن، لاحظت الأم أنها مُهملةٌ بشدّة مع ولدها!
والآن، لاحظ الأب أنه مُقصِّرٌ مع ابنه!
وتأكد الاثنان أن هناكَ شيئاً غير طبيعيّ بـ**"زياد"**!
(Abnormal)!

تنهّد الطَّبيب بعُمقٍ، وهو يُحاول رسم ابتسامةٍ على شفتيه!
رغم كُلِّ شيء، ما تزالُ حالةً إنسانيّة.. وهي أول مرة تُقابله بها!

عَدّل هندامه قبل أن يجلس على كُرسيّه مرةً أخرى، ونظرَ له الأبوان في انتظار ما سيقوله.. والقلقُ والتوتر يحرقان قلبيهما بنار!

ابتلع الطَّبيبُ ريقه، في مُحاولةٍ منه لترتيبِ حديثه حتى لا يقول شيئاً يجرحُهما.. وتحدّث أخيراً:

- هو.. هو احنا هنحتاج شوية أشعة على البطل الصغير، قبل ما أقول أي قرار أخير!

رُغم كذبه الواضح بآخر جُملة! ورُغم شبه تأكّده بالفعل من حالة **"زياد"**!

إلا أن هذا الحل كان أنسب شيء، خصوصاً أنه بالفعل بحاجةٍ للأشعة.. وليس مُجرّد كلام!

كان الأب أول من تحدث، مُقاوماً سقوط قلبيهما من حديث الطَّبيب، قائلاً بانفعال:

- ليه يا دكتور؟! ابني ماله؟ عنده حاجة ولا مش بيسمع ولا ايه!

فنظرت الأم للطَّبيب، ولا زالت لا تستوعبُ شيئاً!

أما الطَّبيبُ، فقد نظر للصغير بتأثر!

كان جميل الملامح، ذو عينان عسليتان، وشعرٍ أسود جميل.. وقد كان يلهو بقلمٍ أعطاه له!

أخذ الطَّبيبُ نفساً، وقال بخفوت:

- ولا ده، ولا ده! بس أنا شاكك بنسبة كبيرة إن عنده.. إن عنده توحّد!

وقعت الجُملةُ على رأسَيْ الأبوَين، كصاعقةٍ لا تُبقي ولا تَذَر! أما الأب، فمن خِلال قِراءته لكِتابٍ ما ذات مرة.. عرف ما تعنيه الكلمة!

وعن الأم، فقد سَمعت بالفعل أنَّ قريبةً لها، تمتلكُ ابنةً هكذا! انقبض قلبها، ولم تَدرِ حقاً.. هل هكذا ضاع ابنها؟! أودَت وَلدها حَتفه -وحَتفهم- بإهمالها وتجاهلها لمُعضلته؟!

كان الطَّبيب يلومُ نفسه بشدّة على إخبارهم، غير أنه ما باليدِ حيلة.. فهل سيُخفي أمراً خطيراً كهذا عليهم؟!

"3- دعنا نبحثُ عَن حَلّ!"

- يعني.. يعني ايه يا دكتور؟ معلش فَهمّنا بالراحة حالة **"زياد"!**

نطقت بها الأم بتلعثمٍ واضطراب، وهي تنظرُ لابنها هادئ المَلامِح، ساكنَ الجلوس.. ينظرُ بتركيزٍ للزخارِف والنمنمات المُنتشرة على البرواز الذي أمسك به!

فتنهّد الطبيب، وقال بهدوء وهو يتحاشى النظر لهم:

- **"زياد"** في الأغلب عنده توحّد، كونه طبعاً بيبقى متقوقع على ذاته ومش بيحب يختلط بالآخرين.. أو بمعنى أصح مش بيعرف يختلط بالآخرين!

تساءل الأب تِلكَ المَرّة وهو يُغمضُ عينيه بألم:

- وهو ده بييجي يا دكتور بسبب الإهمال؟ إننا يعني نستسهل ونقول ده هادي ومنتكلمش معاه.. أو كونه بيقعد كتير قدام التلفزيون؟

انقبض قلبُ **"زينب"** من تساؤل زوجها، وأصغت السمع للطَّبيب الذي أجاب بهدوء:

- دول بيكونوا عوامل لزيادة تأخر الكلام عنده، والتفاعلات الاجتماعية.. لكن مش سبب! التوحّد يا فندم

بيكون -في الأغلب- وِراثي.. مثلاً، حد من عيلة حضرتك، أو حضرتها مُصاب بيه!

ثم أمسك ورقةً وشرع يكتبُ عليها شيئاً، وهو يتحدّثُ بطمأنة كاذِبة:

- وبرضو هقولكم متقلقوش، تأخر الكلام أو قلة التفاعلات مش شرط كافي يكونوا توحّد! أنا هكتبلكم على أشعة تتعمل، واسم أخصائية تخاطب شاطرة جداً، بإذن الله هتفيدكم!

ثم أعطى الأب الورقة التي تحمل ما كتبه، وابتسم لهم بهدوء!

أخذ الأب الورقة بشرود ذهن، ثم استقام وهو يضع ابنه على الأرض ويُمسكُ بيده.. وأخذ منه البرواز الذي كان يُمسكه!

بَكى **"زياد"** بشدة إثر سحب البرواز منه، وأخذ يصرخُ بحدّة.. فقامت الأم بأخذه وحمله، وبدأت تقرأ على أذنه قُرآناً بصوتٍ هادئ..

شكرا الطَّبيب، بينما هو يُطمئنهما ويُخبرهما أنه موجودٌ بأي وقتٍ يحتاجان مُساعدته به!

*****

- نروح الأول نعمله الأشعة، ولا نروح للأخصائية دي؟

قالها **"جمال"** وهما يسيران بهدوء وثِقَل، فأجابته **"زينب"**:

- نروح الأول نعمل الأشعة، ومنها نطّمّن على الواد، وبعد كدة نرتب أمورنا!

أوقف **"جمال"** سيارة أجرة، ثم ركبوها جميعاً بنفس الهدوء.. أو رُبما، الوُجومِ والانكسار!

وبعد رُبع ساعةٍ، وصلوا لمعمل أشعة وتحاليل.. فحاسَب الأب السائق، ثم اتخذوا خُطواتهم ليدخلوا للمعمل..

*****

مَرّت خمسة أعوام على ذلك اليوم، وأصبح **"زياد"** الصَّغير في الثامِنة من عُمُره!

وطوال هذه الأعوام كانت الأمُّ تَسعى جاهدةً لمُعالجةِ تَقصيرها..
كُلّما رأته يجلسُ وحيداً، أو رُبما في تلك المرات التي يعيثُ فيها تحطيماً في أثاث المنزل.. كانت تَبكي بحُرقةٍ وألم!

تظلُّ تُحمّلُ نفسها ذنبه، ولا تعلمُ المِسكينةُ أنَّ هذا قضاءُ الله، ولا رادَّ لقضائه!

كانت تُساعده في ارتداء ملابسه، فاليوم سيذهبُ للمدرسة!
تحاول كَبتَ دموعها وأفكارها عما سيحدثُ له وحده، أو ماذا سيفعل..!
ورُغماً عنها تذكّرت ذلك الموقف مُنذُ شهرين، عندما قرروا جلبَ مُعلّمٍ خصوصيّ له.. وقد كانت أشنع فكرةً فكروا بها!

فقد لاحظوا أن ابنهم عندما يكون معه، يصرخُ ويبكي بلا انقطاع.. وكُلما دخلوا وجدوا المُعلّم يرسمُ نظراتٍ مُستاءة أن ابنهم يفعلُ ذاك دون سبب!

وفي المرّة الثالثة، أصرَّ الأبُ أن يعرف السبب.. فجعل هاتفه بوضع مُكالمة الفيديو مع زوجته، ووضعه في رُكنٍ خَفيّ أمام الزاوية التي يجلس عندها المُعلّم.. وقد صُعق!

صُعق وانتفض بشدّة لما رأى ذاك المُعلّمُ ينظرُ بنظراتٍ كارِهةٍ لـ**"زياد"**..
لم يكن يُعلّمه شيئاً!
لم يكن **"زياد"** يتعلّمُ شيئاً، سوى أن ذاك المُعلّم قد يجذبُ شعره بغلظة، أو يُمسكُ رِسغه بطريقةٍ مُستفزة.. لا تتركُ أثراً، ولكنها تُقيّدُ **"زياد"** وتؤلمه.. لذلك يصرخُ ويبكي لعدم استطاعته التملّصَ مِنه، أو الصراخ باسم والديه!

على أي حالٍ، فذاك المُعلّمُ حبيس قُضبان السِّجن ببضعِ كدماتٍ أو كسورٍ من زوجها.. ولا يجبُ عليها أن تُنغّص على نفسها بتذكّره!

*****

جلس **"زياد"** على مقعده، بعدما أخبرت الأم مُعلمته بحالته، وودّعته بقلبٍ ينفطرُ عليه من قلقِ تركه وحده!

كان ينظرُ لتلك الزينة المُعلّقة حول السبّورة، ثم ينقلُ بصره بين اللوحات العديدة المُنتشرة في الفصل التي تحتوي على رسوماتٍ أو ألوانٍ كثيرة!
شعر بالغضب والتشتت.. ثم فجأة، انتبه الجميعُ لصوتِ الضربات العنيفة على إحدى الطاولات، تزامناً مع ارتفاع صُراخه!

ساد الهرجُ في الفصل، وانتشرت الهمسات بين الطُّلاب..
"ده شكله عبيط!"
"شُفت واحد زي كدة مرة، ماما قالتلي قول ربنا يعافينا!"
"باين عليه عنده تخلّف عقلي!"

أما المُعلمة، فلم تعرف كيفية التصرّف جيداً.. فاتجهت نحو **"زياد"** بسُرعة، وأمسكت يده مُحتضنةً إياه وهي تُحاول تهدئته.. دقيقةً، وسكن بين ذراعيها وهي ما زالت تمسحُ على ظهره وتتنهّدُ بأسى لما قاله زُملاؤه عنه!

*****

"4- إنّما الصَّبرُ بالتّصبرُّ!"

- يا دكتورة أنا متضايقة أوي، مش عارفة أتصرف ازاي! يعني لما جبتله مُدرّس البيت، المُدرّس طلع مؤذي.. ولما وديته المدرسة، رجعلي بكدمات في إيده ورجله! ده غير أنه بقى بيكره يروحها، وكل ما نقف على باب المدرسة عشان ندخل يفضل يصوّت ويعيط.. وواضح جداً أنه بيتعرض لتنمّر من زمايله!

كانت تِلك من **"زينب"**، الذي أخذت تحكي لأخصائية التخاطب وهي تبكي بشدّة، وقلبها يؤلمها على ابنها!

تنهّدت الأخصائية بإشفاقٍ على الأم، وهي تنظرُ لـ**"زياد"** الذي جلسَ برُكنٍ ما يلعبُ بالمُكعبات.. ثم قالت للأم باقتراح:

- طب ايه رأيك تخلّيه عندي هنا في المركز؟ زي المدرسة، وهنهتـ..

قاطعتها الأم بصوتٍ مُرهق ويائس:

- لأ خلاص، مش هكدب على نفسي! وبعدين كدة كدة في الآخر ملهوش فايدة اللي بعمله!

اتسعت عينا الأخصائية بصدمة، ولم تستطع تمالك نفسها فصاحت:

- ايه اللي حضرتك بتقوليه ده! ازاي اليأس يتملكك بالشكل ده؟!

ابتسمت الأم بانكسار، وأجابتها بصوتٍ مُضطربٍ مقهور:

- تِعبت! والله تعبت! أنا عارفة أنه قَدَر ربنا، وأنا والله مش مُعترضة.. بالعكس بحمد ربنا إني أحسن من غيري كتير.. بس صعب عليا أشوفه بيروح المدرسة، وبرضو مش بيتعلّم حاجة! بييجي هنا لحضرتك، وبرضو مفيش جديد!

يبقى خلاص، أقعد معاه في البيت وأعلّمه أنا بنفسي.. أمشي معاه خطوة خطوة..

أنا أهم عندي يا دكتورة من أنه يتعلّم، أنه يبقى كويس ومشوفش في عينه نظرة حُزن أو انكسار!

ساد الصمتُ بينهما، سوى من طقطقة المُكعبات التي يلعبُ بها **"زياد"**.. حتى زفرت الأخصائية بتعبٍ، وقالت بخفوت:

- بتمنى من حضرتك تفكّري في الموضوع تاني.. ومتنسيش مواعيد الدوا بتاعة **"زياد"**، ميقعدش قدام شاشات.. ودور حضرتك طبعاً مُهم! تلعبي معاه وتكلميه، وتخلّيه يردد الكلمات وراكِ.. لما يتعصّب

متضغطوش عليه، وتهدّوه.. كُل ده مُهم طبعاً، وأكيد حضرتك عارفة!

أومأت **"زينب"** برأسها علامة الإيجاب، ثم شكرت الأخصائية بينما تُخبرها الأخرى أنها معها بأيّ وقتٍ تحتاجها به!

*****

كم عاماً مَرّ؟ وهل يهُم! ما زال الأبوان يأملان أن يتعافى **"زياد"** ويُصبح شاباً عادياً كبقيّة أقرانه!

يُدمى قلبُ الأب، وهو ينظرُ حوله في المسجد الذي يُصلي به.. فيرى الشباب في عُمُر ابنه، منهم من يجلسُ يقرأ في المُصحف.. ومنهم من يُعطي درس عقيدة..
آخر يُصلي، والثاني يتحادثُ مع صديقه في أمرٍ ما!

ثم رُغماً عنه، تنزلُ دمعةٌ ساخنةٌ من عينه!
رُغماً عنه يتمنى أن يسيرَ يوماً ما مع ابنه، ولا يراه شارداً هادئاً.. لا يراه ينظرُ للأرض!
رُغماً عنه يصرخُ قلبه ألماً حين يراه يبكي بعُنفٍ دون سبب، أو جالساً على الأريكةِ يُلوّن شيئاً بتركيز.. ورُبما يغضبُ لأن اللون خرج خارِج إطارِ الرَّسمة!

وعن الأم، التي تَبكي بحُرقةٍ حين تسمعه يتحدّثُ بنبرته التي تُشبه الغِناء إلى حدٍ كبير!
أو حين يقتربُ منها، حاضناً إياها بحنان وهو يطلبُ منها شيئاً ما قائلاً بترديد: "ماما ...، عايز..".. ويكأنه طفلٌ صغير ما زال يتعلّمُ بدايات الكلام، وليس شاباً في العقد الثاني من عُمُره!

أهلكها البُكاء والتفكير، حتى شحبَ وجهها، ونحفَ جسدها!

كانت أنانيّةً في حُزنها!
لم تستمع لزوجها حين أخبرها قائلاً:
"يا "زينب" حرام عليكِ نفسك! بلاش تفكّري في نفسك، فكّري في "زياد"! فكّري لو حصلّك حاجة لا قدر الله!"..

ولكن هيهات!
فها هي ذي، مُنذُ أسبوعٍ راقدةٌ على السَّرير.. لا تقوَ على القيامِ بعافيةٍ كعادتها!
يجلسُ زوجها مُسنداً ظهره للحائط، بينما يجلسُ **"زياد"** على السرير بجانبها ينظرُ بشرود للاشيء.. لا زالَ لا يستوعبُ الموقف بشكلٍ جيّد!

- **"زياد"**.. اا، أنا بحبك.. بحبك أوي!
قالتها بوهنٍ، ونبرة صوتٍ أدمت قلب زوجها، قبل أن تُدمي عينيه من البُكاء!
ثم نظرت نظرةً مُتوسّلةً لزوجها.. نظرةً تعني الكثير، وتقهرُ قلوب الكثير!
نظرةً تعني: "اعتنِ به جيّداً!"
قبل أن يخمُد جسدها -سِوى من انتفاضاتٍ طفيفة-، تماماً!

كان الشاب ينظرُ لجسدِ والدته بعدم فهم.. قبل أن يُحوّل نظره لوالده، الذي جلسَ على الأرض بوهنٍ وضعف.. وهو يبكي بحُرقةٍ وصوتٍ عالٍ!
يبكي على فَقدها!
ويبكي وِحدته في الدنيا بعدها!

ويبكي ثِقَل المسؤولية المُلقاة على كاهِله!

- **"زياد"** حِب ماما! **"زياد"** حِب ماما! **"زياد"** عايز شيبسي!

صَدرت من الشاب بتلقائية، ونبرةٍ غنائية مُكررةٍ كعادته!

فشعر **"جمال"** وقتها بألمٍ يُمزّقُ فؤاده بسكينٍ صَدئة! إلا أنه حاول تمالك نفسه حتى يستطيع الاعتناء بابنه!

زَحَف قليلاً على ركبتيه، لعدم قُدرته على الوقوف باتزان.. ثم حاوط كتف ولده بذراعه.. وما زال الآخر يُكرر كلامه، وهو يهزُّ والدته بعُنف.. وقد شعر الأب بأنه على وشك الغضب فالصُّراخ، لعدم استماعها لحديثه!

كتم الأب شهقاته الحادّة بيده، قبل أن يأخذ نفساً ويقول بصوتٍ مُتهدّج:

- بَــس، اهدى يا حبيبي! ماما خلاص معادتش موجودة، بس وعد مني هجيبلك شيبسي ومخليش دمعة تنزل من عينك!

ثم بدأ بالمسح على ذراع ابنه بلُطفٍ وهو يحتضنه، بينما يقرأ ما تيسّر له من القُرآن!

يُهدّئُ به ذاته، قبل أن يُهدئ به الفَتى!

*****

تمت بحمد الله

رغد أيمن